"تسليم أدبي إجرائي"

المَوتُ القَصْدِيُّ في خِطَابِ الطَّفِ والآخرِ الانغماسيّ
«تطابقُ المصاديقِ وتَشَاطُؤُ الغَاياتِ»

Intentional Death in the Discourse of Al-Taff Battle and Terrorist Death : Evidence Confirmation and Intention Divergence

أ.م.د.محمد حسين مهاوي
Asst.Prof.Dr.Mohammad Hussein Mahawi
العراق- كلية الإمام الكاظم ﷺ للعلوم الإسلامية الجامعة
قسم اللغة العربية
Dept of Arabic / University College of Imam Al-Kadhim for Islamic Sciences / Iraq

Mod-alwadh@yahoo.com

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

الملخص

إن البحث الموسوم بـ« المَوتُ القَصْدِيُّ في خِطَابِ الطَّفِ والآخرِ الانغماسيِّ « تطابقُ المصاديقِ وتَشَاطُؤُ الغَاياتِ» ماهو إلا قراءة في الأنساق والمرجعيات الثقافية لمفردة الموت في خطاب الطف، والآخر الانغماسي، وبيان مآلة اللفظة – من كونها مفردة قاموسية تنتمي– إلى الخوف والحزن وكدر الحياة إلى مفردة سامية متوهجة المعنى والدلالة، صيرت الموت طريقا يفضي إلى السعادة، ومن ثم بيان موضع الالتقاء في المصداق بين الفكر الطفي والآخر الانغماسي المتشدد، واختلاف التوظيف والغاية بينهما ولاسيَّما أنَّ القراءة تأتي في مجالٍ سياقيٍّ واحدٍ جامعٍ بينَ المنظورين الإجرائيين، ويندرج ضمن (أدبيات الحرب والجهاد).

الكلمات المفتاحية للبحث: الموت، الانغماس، المصاديق

Abstract:

The research study ، Intentional Death in the Discourse of Al-Taff Battle and Terrorist Death : Evidence Confirmation and Intention Divergence ، is the only reading in the cultural patterns and references of the individual death in the Al-Taff discourse and the terrorist death ، Anghmassi، to fathom its intents . As a word، Anghmassi designates despondency ، fear and agony in comparison with the intentional death that is sublime and meaningful semantically and regards death as a path leading to happiness. Then the points of convergence and divergence are focused to know the goals in the light of the literature of war and jihad.

keywords : death، anghmass، evidences

المقدمة:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيبينِ الطَّاهرين، أمَّا بَعْدُ، فهذا البحث الموسوم (المَوتُ القَصْدِيُّ في خِطَابِ الطَّفِ والآخرِ الانغماسيِّ « تطابقُ المصاديقِ وتَشَاطُؤُ الغَاياتِ») يأتي قراءةً مغايرة للأنساق الثقافيَّة المُكوِّنة للخطاب الحسيني، قراءةً تحليلية محايثة تحاول أن تبحث «قصديَّة الموت» في خطاب الطفّ، وما تحمله من مُهَيمنةٍ إنسانيَّةٍ، وتخليق جَماليّ، يتجاوزُ مفهومُها الأنساقَ الثقافيَّة القارَّة لدلالة لموت، ومحاولة إجراء موزانة مع فكر الآخر الانغماسيّ الذي تَحْملُهُ الجَماعاتُ المُتشدِّدة، ولاسيَّما أنَّ القراءة تأتي في ضوء مجالٍ سياقيٍّ واحدٍ جامعٍ بينَ المنظورين الإجرائيين، ويندرج ضمن (أدبيات الحرب والجهاد) مع ملاحظة الفارق في التمثل والتوظيف والإنتاج للفظة الموت لدى الجانبين، كما سيتبيّن ذلك إن شاء الله، ولعلَّ الأسباب الداعية إلى اختيار هذا الموضوع، تتمثل بالآتي:

أولا: التَّغايُر والاختلاف والجِدَّة في تصوير الموت الذي يُنتجه خطاب الطفِّ، وما ينطوي عليه من بُعدٍ إنسانيٍّ جماليّ، لايرى فيه معسكر الإمام الحسين عليه السلام الموت مجردَ مصير حتميٍّ لافرارَ منه، بل إن حتميته تكمن في كونه ينشدُ تحقيقَ قضيةٍ عادلة، خلافًا لرؤية الآخر الانغماسي الذي يُسوّق الموت فكرة عُنْفية قمعيَّة، تتضاءَل فيها الرُّؤية الجمعيَّة، وتشخص الأنا الفئويّة.

ثانيا: إنَّ المَوْت القَصديّ يعكسُ خِطَابًا إدهاشيًّا مُفارِقًا في الرُّؤى بين العينتينِ المزبورتين اللتين تطابقتْ فيهما المصاديقُ وتشاطأتِ الغاياتُ.

ثالثا: إعادة الاعتبار لمفاهيمَ دينيةٍ أُفرِغت من مضامنيها التشريعيَّة إلى مضامينَ متورِّطةٍ عالميًّا بالإرهاب والعنف والخوف كفريضة (الجهاد) المباركة.

ونحو ذلك من الأسباب، بعد التعرض لقراءة لفظة الموت في البنية اللغوية، والخطاب القرآني والأدبي، والبحث في الأسس والمرجعيات الثقافية التي استحالت بموجبها دلالة لفظة الموت من كونها شعورا نفسيا يبعث على القلق، والخوف، والحزن، والكدر، إلى معنى إنساني وجماليّ مختلف، يصوّر الموت سبيلا لبلوغ سعادة أبدية سامية، في قُبالة رؤيةٍ تتمثل الموتَ صناعةً وستراتيجيةً لفرض واقعٍ حياتيّ مَحكُومٍ بالشدَّة والغِلْظة، ومَسكُونٍ بهاجسِ الخوف والبطش، وشتَّانَ ما بين الرؤيتين، كما سيتضح ذلك في البحث إن شاء الله تعالى.

«دلالة الموت» في البنية الثقافية:

يمكن القول إن الدرس اللساني أفاد كثيرا من معطيات الثقافة وفنونها، ومرجعياتها في تشييد مبادئه ضمن مايعرف باللسانيات البينية التي تكشف لنا عن حوار لسانيات الخطاب للمعارف والعلوم الإنسانية الأخرى، إذ لم يقتصرْ تحليل الخطاب اللِّسانيّ على قواعد التركيب والدلالة، وغيرها من مبادئ التداوليّة المعروفة فحسب، بل بات يستند في تفسيراته إلى جملة من المبادئ والقواعد الثقافية التي تُكوّن وَعْي المُبدِع، ومن ثَمَّ قراءة الخطابات الإبداعية قراءةً علميَّةً، تتساوقُ وظروف القول وسياقات المقام، بما يُحقّق فَهْمًا نَوْعيًّا وعَمِيقًا للعلامة اللغويَّة داخل الخطاب[1]؛ لـذا أرتأى البحث أن يستتبع دلالة الموت وفقًا لسياقاتها ومرجعياتها الثقافية في الاستعمال على النحو الآتي:

أولا: الموت في المدلول اللغوي:

لابُدَّ –ونحن نرصد دلالة الموت في البنية الثقافية– من مفاتشة لغويّة للمعجمات العربية؛ إذ يلحظ المتتبّع لجذور هذه الكلمة واستعمالاتها أنَّها تزخر بمعانٍ متعدِّدة، تحدِّدُها سياقات الاستعمال والتَّوظيف، وفي التَّأصيل اللغويّ لابن فارس نجد أن :

«المِيْم والوَاْوَ والتَّاءَ أَصْلٌ صَحِيْحٌ يَدلُّ على ذَهَابِ القُوّة من الشَّيْءِ. مِنْهُ المَوْتُ: خِلَافَ الحَيَاْة»[٢] وفي هذا التَّعريف إطلاقٌ، وشمولٌ لكُلِّ ما لا يَمتّ للحياة بنَبْضٍ واتِّصالٍ، وقريبًا من مُدوَّنة لِسان العرب المعجميَّة، يُفصّل ابن منظور معنى (المَوْتِ)، ومايُعنى به عند ابن فارس(ذهاب القوة) طِبْقًا لاستعمالاتِهِ في التراث العربيّ، ولاسيَّما قُرآنيًّا؛ إذ يقول: «والمَوْتُ يَقَعُ على أَنْوَاعٍ بِحَسْبِ أَنْوَاْعِ الحَيَاة: فَمِنْهَا ما هُو بإزاء القوَّةِ النَّامِيَةِ المَوْجُودةِ في الحَيوانِ والنبات، كقوله تعالى: ﴿يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾*؛ ومِنْهَا زَوَالُ القُوَّةِ الحِسِّيَّة، كقوله تعالى: ﴿يَاْ لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَاْ﴾*؛ ومِنْهَا زَوَالُ القُوَّةِ العَاْقِلَة، وهي الجَهَالَةُ، كقولِهِ تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَاْنَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاْهُ﴾*، ﴿وَإِنَّكَ لَاْ تُسْمِعُ المَوْتَى﴾*؛ ومِنْهَا الحُزْنُ والخَوْفُ المُكَدِّرُ للحَيَاة، كقوله تعالى: ويأْتيه الموتُ من كلِّ مكان وما هو بمَيِّتٍ؛ ومنها المَنام، كقوله تعالى: والتي لم تَمُتْ في مَنامِها؛ وقد قِيْلَ: المَنامُ الموتُ الخفيفُ، والمَوْتُ: النَّوْمُ الثَّقِيْلُ؛ وقد يُسْتَعَارُ المَوْتُ للأَحْوَاْلِ الشَّاقَّةِ: كالفَقْر والذُّلِّ والسُّؤَالِ والهَرَمِ والمَعْصِيَةِ، وغيرِ ذلك»[٣] فهذه الحمول الدلالية المتولِّدة من تداولاتٍ لغويَّة وقرآنيَّةٍ مُختلِفة لـلفظة(المَوْت) يشتركُ جميعُها بالدلالة المركزيّة التّأصيلية: (ذَهَاْبُ القُوَّةِ من الشَّيْءِ)، وما يَتْبَعُ ذلك فُرُوْعٌ في معانٍ سياقيَّة ومُقَامية، وأمَّا المعاني التي تتَصل بالحالات الوجدانيَّة والشعورية كـ(الحزن، والخوف، وكدر الحياة) ونحوها، فهي معانٍ ارتداديَّة وتأثُّريَّة للمعنى الأصلي، تُبيِّن تلقيه لها، فالفقد يورث الحزن، ويبثّ الخوف، ويَسْلُبُ صَفْوَ الحياة وطعمها. ومايهمُّنا في هذا البحث ليستْ صيرورةَ الموتِ العدمية، وفَناءَهُ وتحوُّلَه من الوجود إلى هذه العدمية، بل التلقّي النَّفسي والشعوري، واستعداد الإنسان لمواجهة الموت.

ثانيا: تلقّـي الـ(موت) في الخطاب القرآني:

التلقي النفسيّ للموت بحسب سياقه الثقافيّ والنصي الذي يدور في فَلَكه، لايكاد يخرج عن الحالات الوجدانيّة التي أشرنا إليها، وفي القرآن الكريم لو تأمَّلنا عددًا من الآيات الكريمة نجد أن الله عزّ وجلّ يُصوّر لنا حال متلقّي الموت بالخَشْيَة والذُّعر، ففي قوله تعالى : ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾* ويُفسِّر الزَّمخشريّ معنى هذا التشبيه، وهم: «(يَنْظُرُوْنَ إليك) في تِلْكَ الحَالَةِ كَمَا يَنْظُرُ المَغْشِيُّ عَلَيْهِ من مُعَالَجَةِ سَكَرَاتِ المَوْتِ؛ حَذَرًا وَخَوْرًا ولِوَاذًا بِكَ»[٤] وما يدعو إلى المفارقة أنَّ القرآن لم يُصوّر حَالَهم ميتين فِعْليًّا، بل إنّ الوصف يندرج في باب المُشابَهة لا على نَحْوِ الحقيقةِ، فحالُ هؤلاءِ المنافقين الخائفين والمتردِّدين من القتال كحال الخائف المذعور من سكرات الموت، وعبَّر السيد الطباطبائي عن هذا التصوير الفنيِّ بقوله:»فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ بِظُهُوْرِ مَخَائِلِ القِتَالِ تَرَاهُمْ يَنْظُرُوْنَ إِلَيْكَ من الخَوْفِ نظرًا لا إِرَادَةَ لَهُمْ فِيْهِ ولا استقرارَ فِيْهِ لأَعْيُنِهِمْ، تَدُوْرُ أَعْيُنُهُمْ كَالْمُغْشِيِّ عَلَيْهِ من المَوْتِ» [٥] وفي موضعٍ آخرَ من القرآن نلحظ أنّ الدَّلالة التشبيهية تتضاعفُ تصويريًّا ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ * فقوله تعالى (ينظرون إليك نظر المغشي) تشبيهٌ بليغٌ مؤكَّدٌ جاء بالمصدر، وهذا التَّصوير يدلُّ على فَدَاحةِ تلقّي الموت، وخَشْيته، وهذا ما لا مَهْرَبَ منه، ولا مَحِيْدَ كما في قوله تعالى ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾* والحِيْد هو:»العُدُوْلُ والمَيْلُ على سَبِيْلِ الهَرَبِ، والمُرَادُ بسَكْرةِ المَوْتِ ما يَعْرِضُ الانسانَ حالَ النَّزعِ؛ إِذْ يشتغلُ بنفسِهِ، وينقطعُ عنِ النَّاسِ كالسَّكْرانِ الَّذي لا يدري ما يَقولُ ولا ما يُقالُ له»[٦]. وقد عبّر القرآن عن مواجهة الموت بالفرار بقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ * دليلَ خوفِ الملاقي لَهُ، وتوجُّسِهِ على الرَّغمِ من حَتْمِيَّتِهِ. هذه الدَّلالاتُ القُرآنيَّة وغيرُها تبيّن حقيقة تلقّي الموت من الإنسان، وعدم تقبُّله، وأنه يتلقيه عَنوةً لا طوَاعية.

ثالثا: تلقِّـي الـ(مـوت) في الخطاب الأدبي (الشعري اختيارًا):

حَافِلٌ خطابُنا الأدبيّ- وأخصُّ منه الشعري تحديدا-، بتصوير الموت، ووقعه وتمثلاته على الإنسان، وما يتركه من خوف وتأثير نفسي على حياته؛ لذا يمكن عرض أبرز هذه التمثلات في الشعر العربي على مختلف عصوره، وبما تسمح به طبيعة البحث من إيرادات تعكس تمثلاته البارزة في البنية الثقافية الشعرية، ففي الشعر الجاهلي يكاد يترسَّخ في الإرسال الشعري ثقافة الموت حقيقةً قارَّة وباتّة، لا مَحيدَ عنها ولا فرار، فهذا ابن كلثوم -مثلا- يؤكِّد في معلقتِهِ النونيَّة قدر المنايا، ووقعها الحتميّ على الإنسان بقوله [٧]:

وَإِنَّا سَوْفَ تُدرِكُنَا الْمَنَايَا مُقَدَّرَةً لَنَا وَمُقَدَّرِيْنَـا

ولم يجانب لبيد بن ربيعة نَسْج ابن كلثوم نَفَسًا شِعْريًّا واعتقادًا قَدَرِيًّا في نازلة المنايا ووَكَادِة تحقُّقِها، ورَكازة سِهَامِها التي لاتطيش، قائلا[٨]:

صَادَفْنَ مِنْها غِرَّةً فَأَصبْنَهَا إنَّ المَنَايَا لا تَطِيْشُ سِهامُهَا

وليستْ حِبالُ الموت ببعيدةٍ عن ثنْيِي عنان طرفة بن العبد، بل تتحيَّن قَبْضَ الفَتَى في أيّ لحظةٍ دونما أن تُخْطئه أو تتجاوزه [٩]:

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى لكالطِّوَلِ المُرْخَى وَثِنْياهُ باليَدِ

وهكذا تجد المقاربات الثقافيَّة في تلقّي الموت، وتصويرِهِ في الشِّعْرِ الإسلامي والعصور اللاحقة، فمن هَوْل التَّصوير والتشبيه لغائلة المنايا، ما قاله الهُذلي في استعارة كنائية مخيفة يصف الموت فيها كالغول الذي ينشب أظفاره في الضحيَّة التي لا تدفع حتفها بالتمائم والأحراز[١٠]:

وإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَها أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيْمةٍ لا تَنْفعُ

ولم يكن الموت نفسُهُ عند العرب مبعثَ القلق والتوتر، بل كان كُلُّ مايقرب منه

مبعثَ قلقٍ وخوفٍ أيضا، فالشَّيبُ مثلا كان مَوْضِعَ توجُّسٍ وريبةٍ وهَرَم، يُدني الآجال لديهم، فهذا ابن الرومي يُضيء بسراج الشيب غفلة الضلال للهداية، والحكمة، والتنبُّه من اقتراب المنايا[١١]:

كَفَىْ بِسِرَاجِ الشَّيْبِ فِي الرَّأْسِ هاديًا إلى مَنْ أَضَلَّتْهُ المَنَايَاْ لياليًا

ونظير ذلك أيضا قول الشريف الرضيّ الذي يجعل نزولَ الشيب مُقاربًا لنزول المنايا [١٢]:

وأَرَى المَنَايا إِنْ رَأَتْ بِكَ شَيْبَةً جَعَلتكَ مَرْمَى نَبْلِها المُتواترِ

لذا بمجرّد التأمُّل بالموتِ تتداعى أمامَ الإنسانِ صورٌ عديدةٌ ومتنوِّعة من الخوف، تتمثل بالخوف من الله تعالى ويوم الحساب، والخوف من وحشة القبر أو الخوف على الأولاد ومفارقة العيال، والخوف من المرض وشماتة الأعداء، والخوف من الدهر، وغير ذلك من أنماط الخوف في الأدب العربي، كما تشير إليه بعض الدراسات الأدبية [١٣] .

ولعل هذه التداعيات البشرية للموت حالة طبيعية رافقت الإنسان منذ تكوين الخليقة، والتي يظهر فيها أشد تمسكا بالحياة، وملذات العيش والخوف من كل شيء يكدر صفوها، وما التجارب الأدبية التي عرضت إلا إنعكاس لجبلة الإنسان التي تؤمن ألا مهرب من الموت كحقيقية كونية باتة، تؤكدها جميع الأديان السماوية وغير السماوية لدرجة أنها أضحت تُصوَّر تصوُّرًا أسطوريًّا : «كان نموذج الموت والانبعاث حقيقة إنسانية مطلقة تخطت في جوهرها الفروقات العرقية والزمانية فكونت بصورها المختلفة بناء أسطوريا واحدا تنتظمه رموز تتكرر في حضارات مختلفة؛ لأنها تعبر عن نموذج أصلي واحد متجسد في اللاوعي الإنساني، ويكسب التكرار –بناء ورمزا– الأسطورة الواحدة أهمية كبرى لأنها تصبح حلقة في سلسلة متصلة لامتناهية تجسد حقيقة لاتحدها مكان ولا زمان» [١٤] .

وتجدر الإشارة إلى أن تلقّي الإنسان للموت في المنظور الإجمالي النسبي لم يكن الا

تلقيًا حذرًا مشوبًا بالحزن، والخوف البشري، وحين تكون الرؤية مغايرةً ومختلفة، كرؤيته مطابقا لمعنى السعادة لدى الإمام الحسين ﷺ في خطابه الأخلاقي الاستثنائي الذي نحن بصدد قراءته وتحليله، فالأمر يستدعي بحث هذه الرؤية. وكيف استطاع المرسل في العملية الإرسالية كسر نمطية النسق المعتادة في النظر إلى الموت كما سيتّضح ذلك في أثناء البحث إن شاء الله تعالى.

الموت القصدي في خطاب الطف:

ينطلق خطاب الطف في رؤيته للموت من مسلمة قرآنية ترى في الموت شرعةً ومنهاجًا لعبادِهِ، وأنَّه القدر الحتمي الذي يؤول إليه الخلقُ جميعُهم، ولا يستثني منهم أحدًا؛ لقوله تعالى(كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ)* بيدَ أن المنظور الإنساني لرؤية الموت لدى الإمام الحسين ﷺ لابد أن يقرأ –بحسب ماتقتضيه منهجية البحث– أي وفقا للسياقات الثقافية التي بُث فيها، بوصفها مفردةً طفية جهادية، وثيمة تنتمي لأدبيات الحرب والجهاد كما هو الحال مع الآخر الانغماسي.

وقد ورد ذكر الموت غير مرة في الخطاب الحسيني، ومنها ماورد في مَعْرِض رَدِّه على مقولة الحُرّ بن يزيد الرياحي (فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن) : «لَيْسَ شَأنِي شأنَ مَن يخافُ الموتَ، ما أَهْونَ المَوتَ عَليَّ في سَبيلِ نيلِ العزِّ وإحياءِ الحقِّ، ليس الموتُ في سبيلِ العزِّ إلا حياةً خالدةً، وليست الحياةُ مع الذُّلِّ إلا الموتَ الذي لا حياةَ مَعَهُ، أفَبالموتِ تُخَوِّفُني؟! هَيْهَاتَ طاشَ سَهْمُكَ، وخابَ ظنُّكَ، لستُ أخافُ الموتَ، إنَّ نفسي لأكبرُ من ذلك، وهمَّتِي لأعلى مِنْ أنْ أَحْمِلَ الضَّيْمَ خوفًا من الموتِ، وهل تقدرونَ على أكثرَ مِنْ قَتْلِي مرحبًا بالقتلِ في سبيلِ الله، ولكنَّكم لا تقدرون على هَدْمِ مَجْدي، ومَحْوِ عِزِّي وشَرَفِي، فإذًا لا أُبالي بالقتل»[١٥] وهنا ينْجابُ النصُّ الحسيني عن انثيالاتٍ لغويَّة مشحونة بطاقات حماسية، ناسبَ فيها فعلُ القولِ سياقَ الخطاب،

فالحُرّ في مقولته محاولةٌ لحمل الإمام الحسين ﷺ ، ومعكسره على الإذعان والتسليم لأوامره، من طريق المجابهة بألفاظ التهديد والوعيد والقتل–كما يتضح من سياق النص– لكنَّ الإمام الحسين ﷺ جابهه بمنطقٍ آخر، ورؤية مختلفة ارتقت فيها دلالة الموت على غير ماكان الطرفُ الآخرُ منتظرًا ومتوقّعًا: «وظاهرُ هذا الكَلامِ أنَّ الحُرَّ يُخوِّف الإمامَ من القتلِ؛ لذا جاءَ ردُّ الإمامِ بهذِهِ القُوَّة، فقد بَنَى الخطابَ على أسلوبٍ ازدحمتْ فيه التَّراكيبُ المُؤكِّدةُ بأكثرَ من أداةِ توكيدٍ، وتَخَلَّلَها استفهامٌ إنكاريٌّ شديدٌ لهذه المقولةِ، وحملتْ بِنيةُ الجُمَلِ التَّركيبيَّةِ على إيحاءاتٍ دلاليَّةٍ على التَّصميمِ والعزم والقوةِ في اتِّخاذِ القرارِ وتخطئةِ المُقابلِ فيما يَظُنُّ»[١٦] هذا التكثيف الدلالي في فهم كُنْه الموت، وغائيته لدى الإمام تتوزَّع مقاصدُهُ بنحوٍ مَنطقيّ ومتسلسلٍ، وتَتَّسِقُ وسياقَ الحَدَثِ، ويتعاطى مع الموت حقيقةً قارة، فبدأ بتفنيد نزعة الخوف البشرية من مقامه وشأنيته، بوصفه إمامًا معصومًا عارفا بتكليفه، وصاحب رسالة إنسانية سامية، تتقاطع هذه الرسالة مع سماتٍ غيرِ لائقةٍ بمقامه الشريف، كالجُبن والخوف وغيرِهما من السمات الهيِّنة التي لايُمكن أن يتّسم بها مَنْ أُنِيطت به مَهمَّة إقامةِ العدل، وتصحيح المسارات المُنحرفة، فراحَ يهوّن من الموت وسلطته القهريَّة، مادامَ واقعًا في سبيل الله تعالى وإحقاقِ الحقّ، ويُؤسِّس بذلك لحياةٍ عادلة، ترفض الذلَّ بديلا لحياة محكومة بسَحْق الكرامة الإنسانية وامتهانها، ثم يجهض الإمام باستفهامه التنكيري(أ فَبالموتِ تُخوِّفُني؟!) مُراهناتِ الحُرّ على تراجعِه، وقوله الإمام ﷺ :(طاشَ سَهْمُكَ، وخابَ ظنُّكَ) أي كناية عن مجانبة تحقيق الهدف المطلوب، والطيش: خِفَّة العقل، وقد جاء في اللسان: "طَاْشَ السَّهمُ عن الهَدَف يَطِيْشُ طَيْشًا إذا عَدَلَ عنه، ولم يقصِدِ الرَّميَّةَ وَأَطَاْشَهُ الرَّامي»[١٧]. فالطَّيش لاينتج إلا الخيبةَ والخُسرانَ، فهذه اللُّغة التَّهويليَّة التي أُقحمت فيها ألفاظ الموت والقتل لايمكن أن تصدَّه عن طريق

الإصلاح، وهو الهَازِئُ بالموت وقهره، والعازم على مواجهته بكُلِّ بسالةٍ وَوَعْيٍ.

وفي ضوء هذه الرؤية الحسينية يمكن لنا أن نجترح أو نُنْتج مفهومًا مُغايرًا للموت نصطلح عليه:(المَوْتَ القَصْدِيَّ) أو مايُسمى (المَوْتَ غيرَ الانتظاريّ) وهو مواجهة الموت بإرادة وإصرار وقصد، دون خوف أو تردّد أو انتظار، والجدير بالذكر أن مصاديق هذا الموت لا تنطبق على الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه فحسب، بل يمكن أن تصدق على رؤية الآخر الانغماسي الذي يسوق نفسه للموت دون رهبة أو وجل أو تردد، لكن الفارق بين العينتين تشاطؤ الغايات كما سيتبين.

هذه التصورات والرؤى التي بيّنا فيها رؤية الإمام الحسين للموت، ماهي إلا مُقدِّمات تؤسِّس لمقولةٍ محايثةٍ وعميقةٍ، يكاد يتفرَّدُ بها الإمام إيمانًا عقديًّا وإنسانيًّا، وانزياحًا تركيبيًّا بلاغيًّا، وهي تلك التي الرؤية التي تجد الموت سعادة، فكيف يمكن فهم هذا المَغْزى الدَّلالي العميق لهذا التركيب؟

يقول الإمام الحسين عليه السلام : «فَإِنِّي لا أَرَىٰ الْمَوْتَ إلا سَعَادَةً...» (١٨).

لا بُدَّ من أنَّ هذه المُحصَّلة العميقة ترتكز على أسس ومقدمات يتشكَّل منها هذا النسق التركيبي الانزياحي؛ وأقول انزياحيًا بالنظر والموازنة مع الأنساق الثقافية الكونية المعتادة التي تقصر الرؤية النفسية للموت على الحزن، والخوف، والكدر كما بيَّنا سلفا، فكيفَ يستحيلُ سَعَادةً؟ فلو جاء النصُّ بنحوِهِ المألوف أو المُتوَّقع، وكان على النحو الآتي: (إني لا أرى الموت إلا كدرًا أو حزنًا)، بتجاوز فكرة الخوف افتراضيًّا؛ لاستبعاد ورودها في ثقافة المرسل أو الباث، يَشْخُصُ سؤالٌ مُهمّ ينبثق من مَتْنِ البناءِ التركيبيّ: هل يبقى النصُّ به حاجةٌ إلى هذا الأسلوبِ المُؤكَّد والحصريّ الذي يقصده الباثُّ؟ بعد أنِ انسلخت عنه فكرة الإنزياحيَّة الدَّلالية، والتزم تراتبيةً مألوفةً ؟! فما الجِدَّةُ والمُغايرةُ في المعنى، فَهَل الموتُ إلا كدرٌ وحزنٌ؟!

لكن حين يصير الموت سعادة، فذلك تخليقٌ جَمَاليٌّ، وإنتاجٌ مُغايرٌ وجديدٌ للمعنى كَسَرَ أفق التوقُّع لنمطية الموت المعروفة، فلو فَتَّشْنا عن معنى اللفظة في جذورها اللغوية، نجد أَنَّها مَصدرٌ من الفعل سَعُدَ يَسْعُدُ: أي فَرِحَ واَستبشرَ، والسَّعادة خلافَ الشَّقاوة [١٩]. ولعل المعنى الضَّدي(الشقاوة) هو المعنى الأقربُ للموت في المنظورِ النفسيّ أو الشعوري، فالفرح والبشرى في معناهما الأصيل، ودلالتهما المركزيّة يلائمان الحياة لا الموت.

فهذه الومضة الأخلاقية تستند إلى أساسين يتمثلان بـ:

أولا: الرؤية اليقينية للباثّ:

فمن يتأمل خطاب الإمام في هذه الجزئية العميقة يلحظ أنه مشحون بطاقات حجاجية تأكيدية، يمكن تفكيكها على النحو الآتي :التوكيد بالأداوت (إنِّي) ، والفعل اليقيني (رَأَى القَلْبيَّة)، والتوكيد بالقصر المُتمثل بالنَفْي وإلَّا، وهذه من الروابط الحجاجيَّة التي تدعم حُجِّية النص، وتُقوِّي بِنيته التركيبية؛ فالمحتوى الإعلاميُّ أو الخبري للنص واحدٌ حتى لو جرَّدناه من المُؤكِّدات، وقلنا :

(أرى الموتَ سعادةً) (وإنِّي لا أَرَى المَوت إلا سعادةً) غيرَ أنَّ المعنى في الجملة الثانية أقوى وأكثر مبالغة وحتمية بتوظيف أسلوب التوكيد بالقصر [٢٠].

ثانيا: (الصدق العابر للتمني):

وهذا الأساس الذي ينبني عليه النصُّ يتبيّن مصداقه بنحوٍ جَلِيٍّ، إذا ما قرأنا رؤيةَ الموت لدى الإمام الحسين عليه السلام المنطلقةَ من صدق دعواه، وإقدامه عليه، وهذه الرؤية تقع في قبالة تَحدٍ واضحٍ لمصاديقَ موسومٍ تحقيقُها بالتشكيكِ والندرة، كشفَ عنها النص القرآني، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ٩٤ ﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾* و يفسر الفخر الرازي قوله تعالى: ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ -في محصّلة ما يذهب إليه- أنَّ هذا الأمر مُعلَّق على شرطٍ مفقودٍ، وهو غِيَابُ تحقُّق الصدقِ، والغَرَضُ مِنْهُ التَّحدِّي، وإظهارُ كذبِهم في دعواهم، ويذهب النصُّ القُراني إلى حتمية مؤكدةٍ أنَّ هذا التَّمني لايَتحققَّ مُستقبلا، وفي ذلكَ خبرٌ غَيبيّ قاطعٌ، يمثِّله قوله تعالى: (وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا...). غير أنّ الأمر مختلف تمامًا مع النظرة الحسينية المُثقلة بتوكيداتٍ أسلوبيَّة كما أوضح البحث، فكانَ صدق الموقفِ أَبلغَ، وأَوْكدَ، ليس في الإقبالِ عليه فَحَسْبُ، بل في تَمَثله ضَرْبًا من ضروب السعادة.

فالموت حتمية واقعة على الإنسان لا مناص منها، والإمام الحسين عليه السلام واحدٌ من أهمِّ المصاديق الإنسانية التي تؤمن بهذه الحتمية، وكيف لا، وهو القائل :« خُطَّ الموتُ على ابنِ آدمَ مَخطَّ القِلادةِ على جِيدِ الفَتَاة»[٢١] فالذي يرى الموت مَحْضَ أو عَيْنَ السَّعَادة، بالنظر إلى سُمُوِّ الهدف، وشَرَف الغاية، لايُنتظَر منه غيرُ الإقدامِ والسيرِ إلى هذه المنزلة حتى بلوغِها:« لاوالله! لا أُعْطِيْكُم بِيَدِي إِعْطَاءَ الذَّليلِ، ولا أَقُرُّ إقْرَارَ العَبيدِ، فأختارُ المَنِيَّةَ على الدَّنِيَّة، ومِيْتَةَ العِزِّ على عَيْشِ الذُّلِّ»[٢٢] من هذا التمثل والإيمان بالموت فكرةً إنسانيةً شُجاعةً تحفظ كرامة الإنسان، وتُؤْثِر عِزّه على ذُلِّه.

الموت القصدي في خطاب الآخر الانغماسي:

أشرنا سلفًا أنَّ الموت القصدي ثيمة تجد مصاديقها حاضرة في خطاب الطف والآخر الانغماسي، غير أنَّ افتراقَ أو تشاطُؤَ الغايات نجده واضحًا بين الاثنين، ليس من جِهَة المُسَلَّم العَقَدي أو من بَاب سُموِّ المنزلة التي يحظى بها الطَّفيُّون لدى المسلمين الشيعة على وجه خاص، بل إنَّ الفيصل لدى المائت قَصْدًا خاضعٌ لمبدأ تَحكُّم الغايات في مَعْرِض تسويق النفس، ومن هنا يقتضي البحثُ وقفةً لبيان مفهوم الفكر الانغماسيّ لدى بعض الجماعات الإسلاموية المتشددة، ليتضح لنا الفرق في الرؤية والنظر إلى الموت بين المنظورين.

الآخر الانغامسي (المرجعيّات الثقافية والجذور التاريخية):

ثمة فرق بائن في النظر إلى الموت عقيدةً جهاديةً إذا ما أردنا عقد موازنة بين المنظور الذي يمثله معسكر الحسين ﷺ وأصحابه الطَّفيِّون، والآخر الانغماسي الذي تمثله الجماعات المُتشدِّدة المتمثلة بتنظيمِ القَاعِدة أو مايُسمَّى تنظيم الدولة (داعش)، فلكُلِّ فكرٍ أو عقيدةٍ مرجعيَّات ثقافية وجذور تاريخية تَستندُ إليها جماعات وتيارات ما؛ لتنظيم سلوكياتها، وتَسيرُ في هَدْيها، وقبل البحث التاريخي لو تأمَّلنا الجذر اللغويّ للفظة (الانغماس) وما لَحِقَها من التَّطورات الاصطلاحية، لوجدنا أنَّ الانغماس مصدر للفعل (انغمس) وهو مُشتقٌّ من الفعل المجرد (غَمَسَ) :«الغَيْنُ والمِيْمُ والسِّيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحيحٌ يَدلُّ على غَطّ الشَّيْءِ. يُقَال: غَمَستُ الثَّوبَ واليدَ في الماء، إذا غَطَطْتَه فيه»[٢٣] ومن الاستعمالاتِ اللغويَّةِ التي تقترب في معناها من الدلالة الاصطلاحية قَوْلُهم:»انْغَمَسَ في العَدُوِّ فقتلوه، أَي: دَخَلَ فيهم، وَغَاصَ»[٢٤] وعَطْفًا على التاريخ –فالباحث في الجذور التاريخية للفظة– يلحظ أنَّ الفكر الانغماسيَّ ينسلخُ من مُسملّة إسلامية باتَّة، يَنظرُ إلى الموتِ القصدي على أَنَّه مبدأٌ قُرآني_ وإن كان

يُمثل رؤية أحاديةً سَلَفيةً_ يُؤمن بأن الموت في سبيل الله غاية مُثلى، بغضِّ النظرعن الوسائل والكيفيَّات المُلجئة لتحقيق ذلك، اتّكاءً على ظاهر بعض السياقات القرآنية الواردة في بعض السور القرآنية المباركة، كسورة التوبة وتحديدا في الآيتين الخامسة والسابعة اللتين تُشيران إلى فكرة القتل والتقاتل، وشراء النفس في سبيل الله، إذا كان فيه مصلحة للإسلام، وهذا المبدأ تحاول أن تصهره بعض الجماعات الدينية المتشددة في بُوْتقة أفكارها المتطرِّفة، وتنتج لنا ظاهرة تكفيرالآخر، مُسِّوغة بما في ذلك ظاهرة الانتحار، وقتل النفس وغيرها ، لذلك ينقل عن ابن تيمية أنه :»جَوَّزَ الأئمَّةُ الأربعةُ أنْ يَنْغمسَ المُسلمُ في صفِّ الكُفَّار، وإن غَلَبَ على ظَنِّه أَنَّهُم يقتلونَهُ؛ إذا كانَ في ذَلكَ مَصْلحةٌ للمسلمين»(٢٥)

وفي كتب التأريخ والسير يحاول المتطرفون أن يستعيروا مصاديقَ لأفكارهم ومعتقداتهم، ولعلَّ شخصية (البراء بن مالك ت٢٠هـ)* الذي يُؤمن بمبدأ (الله والجنة) من أبرز الشخصيات التي يصدق عليها الفكر الانغماسي في المعارك الإسلامية آنذاك، وتحديدا من ناحية الإقدام والجرأة التي قد تصل إلى حدِّ التهور، ممَّا جعلَ بعض الجماعات المتطرفة أن تجعله الأنموذج أو الأسوة لتسويغ أعمالها الإجرامية والعداونية، وشخصية البراء بن مالك من الشخصيات الإسلامية التي أثارت الجدل في مسألة مايتمتع به من جُرأة وقُوّة واندفاعية إلى الحدّ الذي جعلت من قادة الجيوش الإسلامية أن تقف منه موقفَ الحَذرِ والتَّردد في إدارة بعض كتائب الجيش، فينقل عن الخليفة عمر بن الخطاب أنَّه كان يحذرُ من استعمال البراء على رَأْس جيشٍ من الجيوشِ الإسلامية؛ لأنَّه مَهْلكةٌ من المهالك، وذلك كنايةٌ عن جسارته، وجرأته على الأعداء، واقتحامه لصفوفهم، وتَذكر المَظانّ التاريخية أنَّ البراء كان يُحمل في حرب مسيلمة الكذاب المُسمَّاة (حرب الحديقة) على تُرُس من

على أسنّة الرماح، ويُلقَى من الأسوار العالية لفتح الأبواب أمام جيشه؛ والاقتحام على الأعداء [٢٦] .

ويبدو أن الجماعات المتشددة في تنظيم القاعدة متأثرة بشخصية الصحابي (البراء بن مالك) وروحه القتالية الاستنزافية، مما جعلها تطلق اسمه على أهم كتائبها الحربية الضاربة الانتحارية؛ إذ تُعَدُّ هذه الكتيبة التي أسَّسها تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين على يد أحد أبرز قادتها الميدانيين (أبي مصعب الزرقاوي) في سنة ٢٠٠٤ إحدى أبرز الكتائب الانتحارية للتنظيم، وكان يرأس هذه الكتيبة (أبو دجانة الأنصاري)، وينفّذ المنتمون لهذه الكتيبة العمليات المُوجَهة لضَرْب الأهداف الحَيَويَّة، ويشرف عليها قادة ميدانيون مدربون وخبراء في عمليات تصنيع المتفجرات والتفخيخ والتوصيل، وتفجير العُبُوَّات سِلْكيًّا ولاسِلْكيًّا عبر الأجهزة الخاصة (ريموت كنترول) وعبر الهواتف الخلوية، وغيرها من الأساليب الأخرى[٢٧]. ولايُرجّح البحث أن يكون هذا التأثر الفكري لتنظيم القاعدة بشخصية البراء مُسوِّغًا لإيجاد حالة تَطَابُقٍ سُلُوكيٍّ عِدْوانيٍّ بين المؤثِّر والمؤثَّر، على الرغم مما عُرِف عن شخصيَّة الصَّحابي بأنَّها انفعاليَّةٌ بشهادة عمر بن الخطاب، فالتنظيم حاول أن ينتزع الروح الاستبسالية للصحابي في محاولةٍ لكسبِ زَخَمٍ معنويٍّ لدى أفراده، والمبالغة في إظهار جانبٍ من الشدة والعنف لهذه الجماعات المتطرفة، وَرَفْضًا لهذا التوظيف العَقَدي، دعا بعض الباحثين إلى ضرورة:«استعادة الصحابي البراء بن مالك من عقليَّة الانتحارِ الجماعيِّ العشوائي والغدرِ والتفخيخِ إلى رَحَابةِ التاريخِ البُطوليِّ الأَخْلاقيِّ»[٢٨]؛ إنْصَافًا لدوره في مُناصَرة قضايا الإسلام.

واتِّصالا بما أشرنا إليه من تعريف لغوي للفظة (الانغماسي) أوضح معنى الغوص والاستتار داخل صفوف العدو، تجدر الإشارة إلى أنَّ الدلالة الاصطلاحية للفظة

الانغماسية والانغماسيين لم تأخذ حظَّها بدراسةٍ تفصيَّلةٍ سوى إشاراتٍ متناثرةٍ على شَكْلِ مَقَالات وتحقيقات، بعضها أُسْتقيت مَعْلُوماتٍ من طُرُق تصريحات عددٍ من قادة التنظيمات المُتطرِّفة، وذلك بوصفها تشكيلاتٍ عسكرية حديثة، ويمكن إجمال مايتوافر عن هذه التشكيلات من معلومات متداخلة ومتناثرة للخروج بصيغ مفاهيمية لإيضاح (دلالة الانغماسية الاصطلاحية والمهام التي تضطلع بها) [٢٩]:

أولا: الانغماسية: منظور فكري عسكري عقدي أسَّسه تنظيم القاعدة في العراق وسورية واليمن، والتزمته من بعده، معظم التنظيمات السلفية المتطرّفة، ومنها ما يسمى تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) كوسيلة لتحقيق أهدافٍ نوعيّة في صفوف خصمها.

ثانيا: الانغماسيون: الجيل الرابع من الانتحاريين الذي يختلف عن باقي الأجيال الأخرى، بوصفه القوة الضاربة للتنظيمات المتشددة، التي تتحرك بها نحو تحقيق أهدافها.

ثالثا: سبب توظيف التسمية: ولعلّ الأسباب التي أدت إلى توظيف هذا الفكر من الجماعات المتطرفة تعود إلى مرحلة ما يعرف اصطلاحاً بـ(الحرب الأفغانية السوفيتية)؛ إذ ظهرت التسمية في أثناء العمليات القتالية التي وقعت في تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠١ واستحدثه تنظيم القاعدة ليكون مقابلاً لقوات (الكوماندوز الأمريكي).

رابعا : سمات الانغماسيين:

١-ينماز الانغماسيون بأنهم ذوو بنية جسمانية قوية.

٢- يحظى الانغماسيون بقدرٍ عالٍ من التدريبات الشاقة والقوية للحصول على لياقةٍ بدنيةٍ عالية. فضلا عن التدريبات النفسية، وتغذيتهم بأفكار عَقَدية تُجاه الآخر

الديني والمذهبي.

٣- تمتُّعه بالشجاعة وعدم التردّد، والولاء المطلق وغير المشروط للتنظيم.

خامسا: مهام الانغماسية:

أمَّا المَهام التي تَضْطَلع بها الجماعات الانغماسية، فيمكن إيضاح أبرزها بالنقاط الآتية:

١-استعمالهم قُوّةً ضاغطةً تُشكِّل قلقًا على العَدُوّ عبر ما تمارسه من عملياتٍ عسكرية فوضوية تتنافى وأخلاقيات الحرب وأدبياتها.

٢- التشديد على تحقيقِ الهَدَف النوعيِّ على العدو بغضِّ النَّظر عن الأخطاء الواقعة، وحجم الضَّررِ أو الخسائرِ البشريةِ أو المادية، وهذا ما يتنافى والمبدأ الإسلامي الذين يدعون التزامه وتطبيقه؛ إذ كُلّ الموجودات هي هدف للانغماسيِّ، بغضِّ النَظر عن حرمتها أو انتماءاتها الدينية والإنسانية. فهم -كما يقال في أبسط تعريفات الانغماسيين- -الذين إذا ذهبوا وتمنطقوا بالحزام الناسف لن يعودوا-.

٣- التَّسلُّل في صفوف عناصر الخصم، وقتاله في عُمْق منطقته؛ بهدفِ رَبْكِهِ والتأثير في معنوياته، وتسهيل مَهَمَّة الفصيل الذي ينتمون إليه في فتح الثغرات الأماميّة والاقتحام والسيطرة.

٤- إيقاع أكبر قدر ممكن من الخسائر البشرية لدى الخصم، من دون أن يتبعها هجوم أو أن يكون لها هدف بتحقيق تقدُّمٍ ميدانيّ.

٥- الإيحاء العُنْفي أو الوَقْعُ الإعلاميّ الذي تُحدثه لفظة الانغماسيَّة أو الانغماسيين في تسويق إصدارات الجماعات المتطرفة.

يتَّضح ممَّا سَلَف أنَّ الجامع بين هذه السِّمات تأكيدُ ستراتيجية العنف، واستخدامُ الشِّدة المفرطة التي لابُدَّ أن يتَّسِمَ بها المُنتمون إلى تنظيم داعش، ومن على شاكلتهم

حدّ العقيدة والمبدأ، لذلك يقول أبو بكر ناجي الكاتب «المنتمي» المختصّ في الجماعات المتشددة في مَعْرِض حديثِه عن الشِّدة ستراتيجيةً مُؤَكَّدةً في الجهاد:»وَمَنْ مَارَسَ الجِهَادَ مِنْ قَبْلُ، عَلِمَ أنَّ الجِهادَ مَا هُوَ إلا شِدَّةٌ، وغِلْظَةٌ، وإرهاب، وتشريدٌ وإثْخَانٌ»[٣٠] ولايمكن وَصْل الجهاد بالعُنْف، وإقحامه فيه؛ لأنَّ ذلك الاضطراب والتَّداخُل المفهوميِّ والتَّلازُم المعنوي بين الجهاد والعنف -كما يقول الدكتور معتز الخطيب- إدانةٌ وتورُّطٌ لمفهوم الجهاد بالمطلق، موضِّحًا أن الإشكالَ في هذا الخَلْط آتٍ، من الممارسات الفرعية لبعض الجماعات المتطرفة كتنظيم القاعدة، ومن ينحو منحاها، ممَّا أدَّى إلى الخَلْط، وعدم التمييز بينَ ما هُوَ مُقاومةٌ، وما هُوَ إرْهابٌ [٣١].

لذا تلحظ في خطاب داعش كما يقرأه الكاتب السوري ياسين الحاج:» احتفاءٌ قويٌّ بالموتِ والقتلِ ومفرداتِها. حين يقولُ داعشيُّون مثلا بأن أَنِيْسَهُمْ الأَشْلَاءُ، وشَرَابَهُم الدِّمَاءُ، وحين يهزجونَ للذَّبْحِ والسَّيْفِ، فإنَّ في هذا ما يَعْنِي أَنَّهم يَعِيشونَ في الموتِ، وبِهِ ومِن أَجْلِهِ»[٣٢]، مبتكرين بذلك أنماطًا مهولةً وبَشِعَةً من الموت، ويمضي الحاجّ في تفكيك العَلاقةِ الانتمائية بين الموتِ والفكر الداعشي بوصفها ظاهرةً مُستحكمةً؛ إذ يَلْحَظُ : «في عُمْقِ التَّكوينِ الدَّاعشيّ انجذابٌ شديدٌ للموتِ، يَنعكسُ على كُلِّ حالٍ في حَياةِ عُمُومِ الدَّواعشِ وبَلاغتِهم ورُمُوزِهم. الجماعةُ مُعادونَ للفنِّ عِدَاءً جَذْريًّا، ومُلْتَصقونَ بحياةٍ ترابيةٍ تَجتهدُ في أن تَضيقَ المسافةُ بينَها وبينَ الموتِ إلى أقصى حدّ. ولعلَّ المسافةَ الضيِّقة بين الداعشي وضحيتِهِ هي أيضا المسافةُ بينَهُ وبينَ مَوْتِهِ الخاصّ. أعني استعداده الميسورَ للموتِ، الأمرُ الذي ربما يَقيسُ كذلك الاعتقاد الداعشي بقربِ المسافةِ بينَ «الدارين»: «يستشهد» في هذه «الدار»، فلا يلبث أن يحيا هناك منعما في «الدار الأخرى»» [٣٣] ويحدو بهم هذا الانسياق الأعمى الى مُغرياتٍ أُخرويَّة كسُموِّ المنزلة، والتنعُّم بأحضان الحُور العِين، وطيِّبات الجَنَّة

وغيرها من اللذائذ المؤجَّلة التي تُشكّل دافعيةً رَغَبيةً لمغامرة هذه الجماعات، مما جعلَ تلك الظاهرة تتنامى الى حدٍّ أن تتطورَ إلى عَدّ الانتحارِ ضَرُورةً ماسَّة لحفظ الدين! كما اتضح فيما سبق، بغضِّ النظر على (الكيف والأين والمتى) متجاوزة بهذا حتى المبنى الميكافيلي، فالغاية هنا تبرر الغاية!! فلاحاكميةَ تضبط إيقاعَ الموت القصديّ المتواصل لدى أصحاب هذا الفكر، فالتعمية والمغامرة والفوضى، والبحث عن إثبات الوجود، وإحكام القبضة عبر إثارة نزعة العنف متبنيات تجعل من الموت انهزامًا إلى الأمام دونما وَعيٍ، وفي ذلك قد تجد في عمل الانتحاري مَنْزعًا صَوْب سعادةٍ مَنْقوصةٍ أنويةٍ لايُمكن أن تكونَ أُمَميةً مُنطلقةً من فِكرٍ جَمْعيٍّ حَيٍّ مُتنامٍ، بل رُبَّما يتوصَّل مُتأمِّلٌ ما إلى نتيجةٍ شبهِ حتميَّة، مُفادها أنَّه مثل هذا النوع ماتَ ليموتَ فيُنسَى، ومردّ ذلك من دونِ شكٍّ يعودُ إلى اختلال الغاية واضطرابها.

في حين أنَّ النظرَ بائنٌ ومُختلِف في مسألة إسقاطِ فكرة الموت القصديّ، وإجرائها على مَشْهديَّة الطَّف؛ لأنَّها تنطلق من مُعْطى إنسانيٍ أخلاقيٍّ قبلَ أنْ تكونَ مُهَيْمِنةً إسلاميّة عقدية، جاءت لإنشاد العدل وتحقيقه كثابتٍ سماوي. فالإمام الحسين عليه السلام لم يغامر بنفسه وأهل بيته وأصحابه ليجعلهم وقودًا لنار الحرب، وما يُدلل على ذلك رَفْضُ المناوئين له الرجوعَ لديارِهِ حين طالَبهم بفكرةِ العودة:»أيُّها النَّاسُ:إِذَاْ كَرِهْتُموني فَدَعُوْنِي انْصَرِفْ عنكم إلى مَأْمَنٍ من الأرض»[٣٤]، فمن هنا تُدفَعُ غائلةُ الانتحارية عن قصدية الموت في فكر رجالات الطف؛ لأنّها كما أسلفنا تنطلق من مُعطى إنسانيّ إصلاحيّ توعويّ لايقوم على أَرْهَبَة الناسِ وإخافتهم؛ لذا تجد مِصداق ذلك في دُرّة الإمام الأخلاقية، ووجدانه الإنسانيّ، حين استطالت رأفتُه حتى أعداءه، فهو المشفق على ظالميه لدخولهم النارَ على الرغم ممَّا تسببوا له من أذًى!، وهذا فارقٌ لك أنْ تتأملَ بُعْدَه الإنساني والأخلاقي، إذا أحدثت مُقايسةً لأصحاب الفكر الآنف،

فشتانَ بينَ مَوْتٍ مُفضٍ إلى موتٍ أَنَوِي ضيّق ليس له ذكر، وآخَرَ مُفضٍ إلى حياة أُمَمِيَّة حازت الخلود في الدارين؛ إذ نلحظ عند الإمام الحسين وأصحابه كَسْرًا لأفق الموت المقرون بالأسى والخشية، والجزع إلى دلالة جماليّة ترى في الموت أفقًا رَحْبًا، تجاوزت نمطيَّته المعهودة لتستحيلَ قِيمًا عُليا تُفضي إلى سعادة سرمدية. فيكفي لمتلقٍ أن يقرأ في نص الإمام المحايث، وما يُضمره من تِقْنياتٍ بلاغيّة عالية المضمون، انزاحت فيه المضامين الدلالية لتشكل أسلوبًا إبداعيًّا نقلَ المغزى الدلالي من نمطيَّة الموت الحاملة للخوفِ والسكونية إلى صورةٍ جَماليَّةٍ مِلْؤُها حياةٌ وسَعَادَة.

الخاتمة:

يمكن إيجاز أبرز النتائج التي توصَّل إليها البحث على النحو الآتي:

١-يكشف تلقي الموت للأنساق الثقافية المختلفة ولاسيَّما من المنظور اللغوي والقرآني والأدبي عن ذهاب القوة من الشيء وسلبها، وأنه شعور نفسي يبعث على الكدر والخوف والحزن.

٢-يتجاوز تلقّي مفهوم الموت عند الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الرؤية النفسية الى التخليق الجمالي في النظر إليه طريقًا إنسانيًّا وأخلاقيًّا وروحيًّا يؤدي الى السعادة الحَقَّة.

٣- الرؤية اليقينة التي جسَّدتها مقولته العميقة (إِنِّي لا أَرَى المَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً)

٤-الصِّدق العابر للتمني في الرؤية الطفيَّة إزاء مصاديق قرآنية موسوم تحقيقها بالندرة والتردد والظنية (فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) .

٥-اجتراح مصطلح (الموت القصدي) او (الموت غير الانتظاري) الذي ينطوي على تطابق المصاديق بين المنظور الحسيني والمنظور الانغماسي، وتشاطؤ الغايات والدافعية الأخلاقية بين المنظورين.

٦-إعادة انتاج مفهوم الآخر الانغماسي وتحديد مصطلحي(الانغماسية) وسبب التسمية و(الانغماسيين) وسماتهم، وأبرز المهام المنوطة بهم.

٧-استخدام الفوضى والعنف والشدة المفرطة من الانغماسيين كاستراتيجية الإخافة في تسويق الموت، لافرق إن كان المائتُ انغماسيا أو هدفًا إنسانيا آخر.

وغيرها من النتائج التي تحصَّلها البحث.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل الرسل والأنبياء محمد وآله الطيبين الطاهرين.

هوامش البحث:

١/ ينظر: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة:(١٥)

٢/ مقاييس اللغة، مادة: (م و ت)

*الروم: ١٩

* مريم: ٢٣

* الأنعام: ١٢٢

* النمل : ٨٠

٣/ لسان العرب، مادة: (م و ت)، وللإفادة والزيادة في تفصيل دلالة الموت والألفاظ المرادفة التي تدل عليه، ينظر: الموت والألفاظ المقاربة له في القرآن الكريم:(١١٥-١١٦)

* الأحزاب: ١٩

٤/ تفسير الكشاف: (٣: ٥١٤).

٥/ الميزان في تفسير القرآن:(١٦: ٢٩٤).

* محمد : ٢٠

*ق :١٩

٦/ الميزان في تفسير القرآن: (١٨: ٣٤٨).

* الجمعة: ٨.

٧/ ديوانه: (٦٦).

٨/ ديوانه: (٢١٨).

٩/ ديوانه: (٤٩).

١٠/ شرح أشعار الهذليين: (١: ٤، ٦، ٨).

١١/ ديوانه: (٦: ٢٦٤٥).

١٢/ ديوانه: (١: ٥١٠).

١٣/ ينظر: صور الخوف في شعر القرن الثالث:(١٨-٤٧).

١٤/ أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث:(٥٩-٦٠).

* ال عمران : ١٨٥.

١٥/ أعيان الشيعة:(١ :٥٨١).

١٦/ الخطاب الحسيني في معركة الطف دراسة لغوية وتحليل:(٧٩).

١٧/ لسان العرب، مادة: (ل س ن).

١٨/ أعيان الشيعة :(١: ٥٩٨).

١٩: ينظر: لسان العرب، مادة:(س ع د).

٢٠/ ينظر: القيمة الحجاجية لأسلوب التوكيد في الخطاب القرآني -دراسة تطبيقية في سور الحواميم: (٣٦).

* البقرة: ٩٤، ٩٥.

٢١/ ثورة الحسين في ظلال نصوصها وو ثائقها:(٤٠).

٢٢/ أعيان الشيعة:(١: ٥٨١).

٢٣/ مقاييس اللغة: مادة (غ م س).

٢٤/ لسان العرب: مادة (غ م س).

٢٥/ الفتاوى الكبرى، مسألة ٨١٣: (٤: ٣٣٢). و للاستزادة والتفصيل، ينظر: الجهاد والفدائية في الإسلام:(١٦٥-١٦٧).

*أحد أنصار رسول الله وهو أخو الصحابي أنس بن مالك الخزرجي، شهد معركة أحد، ويُعَدُّ أحد المبايعين تحت الشجرة، ينظر: سير أعلام النبلاء:(١: ١٩٦).

٢٦/ ينظر: المصدر نفسه:(١: ١٩٧)

٢٧/ ينظر: تنظيم القاعدة في العراق، مقال منشور في موقع بوابة الحركات الإسلامية، وقد تناقل خبر تشكيل كتيبة البراء بن مالك غير موقع إخباري، مثلا على سبيل المثال لا الحصر مثلا موقع دنيا الوطن.

٢٨/ هل كان البراء بن مالك انتحاريا؟ مقال منشور في موقع صحيفة المثقف.

٢٩/ ينظر: الانغماسيون رهان الورقة الأخيرة لـداعش، دراسة صحفية منشورة في موقع الوطن العربي، الانغماسيون بقايا داعش في العراق، مقال منشور في موقع صحيفة الشرق الأوسط، الانغماسيون: القوة الضاربة للتنظيمات الجهادية، تقرير صحفي مفصل، منشور في موقع العربي الجديد، أخبار توظف لفظة الانغماسية إعلاميا في جريدة النبأ.

٣٠/ إدارة التوحش «أخطرُ مرحلةٍ ستمرُّ بها الأمَّة» :(٣٤).

٣١/ ينظر: العنف المستباح»الشريعة في مواجهة الأمة والدولة:(٤٥).

٣٢/ أنماط الموت السورية، مصنفة حسب القاتلين، مقال تفصيلي منشور في موقع الحوار المتمدن.

٣٣/ المقال نفسه.

٣٤/ تاريخ الطبري:(٦: ٢٢٨).

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

❁تاريخ الطبري«تاريخ الأمم والملوك المؤلف» ، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، السنة ١٤٠٧.

❁ تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود الزمخشري، رتبه وضبطه وصححه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية_بيروت لبنان، السنة: ٢٠٠٣م.

❁ديوان ابن الرومي، تحقيق: حسين نصّار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، السنة ١٩٧٩م.

❁ديوان الشريف الرضي، شرحه وعلق عليه: محمود مصطفى حلاوة، دار الأرقم ابن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، السنة ١٩٩٩م.

❁ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمريّ، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال، المؤسسة العربية، بيروت– لبنان، ودار الثقافة_البحرين، الطبعة الثانية، السنة ٢٠٠٠م.

❁ديوان عمربن كلثوم، تحقيق: أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، السنة١٩٩١م.

❁ ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق: حنا نصر، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، السنة ١٩٩٣م.

❁سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، السنة ٢٠٠١م.

❁شرح أشعار الهذليين، أبو السعيد السكري، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة دار العروبة، القاهرة.

❁الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، السنة ١٩٨٧م.

❁مقاييس اللغة: ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، السنة ١٩٧٩م.

❁لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، دار إحياء التراث العربي–بيروت، السنة١٩٩٩م.

المراجع:

❁إدارة التوحش «أخطرُ مرحلةٍ ستمرُّ بها الأمَّة»، مركز الدرسات والبحوث الإسلامية

❁أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات_ بيروت.

❁ثورة الحسين في ظلال نصوصها وو ثائقها، د.عبد الهادي الفتلي، مكتبة الغدير للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، السنة ٢٠١٢م.

❁الجهاد والفدائية في الإسلام، الشيخ حسن أيوب، دار الندوة الجديدة بيروت، الطبعة الثانية، السنة ١٩٨٣م.

❁الخطاب الحسيني في معركة الطف دراسة

لغوية وتحليل، د.عبد المحسن كاظم الياسري، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
*العنف المستباح»الشريعة في مواجهة الأمة والدولة، دار المشرق، القاهرة، الطبعة الأولى ، السنة ٢٠١٧م.
*القيمة الحجاجية لأسلوب التوكيد في الخطاب القرآني –دراسة تطبيقية في سور الحواميم– عبايدية صورية، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات الجزائرية، السنة ٢٠١٢م.
*لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة «فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة»، د.عبد الفتاح أحمد يوسف، منشورات الاختلاف_الدار العربية للعلوم ناشرون_، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
*الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات_بيروت لبنان، الطبعة الأولى، السنة ١٩٩٧م.

الرسائل والأطاريح:

*أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث، ريتا عوض، رسالة ماجستير، مقدمة للجامعة الأميركية في بيروت،١٩٧٤م.
*صور الخوف في شعر القرن الثالث، عبد علي رضوان علي الهادي، أطروحة دكتواره، جامعة الزقاقيق_مصر، كلية الآداب، السنة ٢٠٠٩م.
*القيمة الحجاجية لأسلوب التوكيد في الخطاب القرآني –دراسة تطبيقية في سور الحواميم– عبايدية صورية، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات الجزائرية، السنة ٢٠١٢م.

الدوريات:

*الموت والألفاظ المقاربة له في القرآن الكريم، دراسة دلالية، د.حميدة حسن، بحث منشور في مجلة الأستاذ، العدد٢٠٦، المجلد الأول، السنة ٢٠١٣م.

شبكات الانترنت:

*أخبار توظف لفظة الانغماسية إعلاميا في جريدة النبأ، العدد ٣٧١، ٧ رجب ١٤٤٠،على الرابط: sptth://.sserpdrow.selfi.nileza/moc/٣٠/٩١٠٢/-cimalsi-eht-٩٩٠٨٢e٤٨ccaban-la-etats-fdp.٣٧١-rettelswen
*الانغماسيون بقايا داعش في العراق، حمزة مصطفى، مقال منشور في موقع صحيفة الشرق الأوسط، ٥ يوليو ٨١٠٢، الرابط: sptth://moc.taswaa//emoh/elctira/١٥٣١٢٣١/
*الانغماسيون رهان الورقة الأخيرة لـداعش، دراسة صحفية منشورة في موقع الوطن العربي، بتاريخ ٢١ يوليو ٨١٠٢، على الرابط: sptth://moc.ibaralanatawla/ .
*الانغماسيون: القوة الضاربة للتنظيمات الجهادية، عبسي سميسم، تقرير صحفي

مفصل، منشور في موقع العربي الجديد بتاريخ ٢٢ديسمبر ٢٠١٤، على الرابط: sptth://www.alarabiy.ku.oc/ctiilop/٢٠١٤/١٢/٢١/٢٢،

*أنماط الموت السورية، مصنفة حسب القاتلين، ياسين الحاج صالح، مقال تفصيلي منشور في موقع الحوار المتمدن بتاريخ ٧/ ١١/ ٢٠١٤، على الرابط: ptth://www.raweha.net/tabed/wohs.tra/dia?psa=٤٤٠٥٣٩&r=٠

*تنظيم القاعدة في العراق، مصطفى أمين، مقال منشور في موقع بوابة الحركات الإسلامية، في ٢٧ أكتوبر ٢٠١٨ على الرابط الألكتروني ptth://www.islamist-movements.com/٢٠٦٢،

*موقع دنيا الوطن على الرابط الألكتروني: ptth://www.alwatanvoice.com/arabic/news/٢٠١٥/٠٦/٠٢/٧٤٦٢٢.html

*هل كان البراء بن مالك انتحاريا؟ علاء اللامي، مقال منشور في موقع صحيفة المثقف، العدد ١٠٦٤ في ١١/ ٤ / ٢٠٠٩، على الرابط الألكتروني: ptth://www.almothaqaf.com/qadaya-ra-ai/٦٢٧٩٧

*amayadaq/amaay-٢١/٦٢٧٩٧